ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN:2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:05، العدد:02 (2021)، ص415-425

الحملات العسكريّة المرينيّة وأثرها على استقرار قبائل عرب بني هلال في القرن 08هـ /14م

The Marinid military campaigns and their impact on the stability of the Arab Banu-Hilal tribes in the century 08AH-14AD

أحمد بن بلخير *
جامعة علي لونيسي - البليدة 02 (الجزائر)
benbelkheir28@gmil.com

عبد القادر بوعقادة
جامعة علي لونيسي - البليدة 02 (الجزائر)
bouagada_aek@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/09/03
تاريخ القبول:
2021/10/21

الكلمات المفتاحية:
- ✓ بنو مرين
- ✓ القبائل العربية
- ✓ الحملات العسكرية
- ✓ الحرابة

الملخص:

شكّلت موقعة سطيف548هـ/1153م بين جيوش الموحّدين والقبائل العربية حدّا فاصلا بين انتقال القبائل العربية من أسلوب الحرابة وحيازة المجال إلى التوبة والاستقرار والتوجّه نحو ممارسة بعض الأنشطة الاقتصادية كالزراعة مثلا، استطاعت دولة الموحّدين من خلال سياستها تأطير المجموعات القبلية الهلالية فحاولت إدماجها من خلال إتباع سياسة إشراكها في مشاريع الجهاد ضد النصارى واستخدامها في تمرير مشروع توريث الحكم لبني عبد المؤمن، كما أعادت توطين بعض القبائل مثل عرب رياح والجشم بالمغرب الأقصى، ما أدّى إلى إضعاف وتفكيك عصبية تلك القبائل، ومع قيام دولة بني مرين والانهيار التام للموحّدين 668هـ/1270م، أعلن المرينيّون منذ البداية الحرب على قبائل العرب، فكان توجيه الحملتين العسكريّتين الشهيرتين، حملة السلطان أبي الحسن المريني سنة 748هـ/1347م وابنه السلطان أبي عنان سنة 758هـ/1357م، ولئن صوّرت الإسطوغرافيا التاريخية هذه الحملات في صورة تأمين طريق الحج وتأديب القبائل المخالفة للسلطة ،فإنّ النتيجة كانت وخيمة أدّت في النهاية إلى العصف بكلّ استقرار للقبائل العربية وعودتها إلى وضع النشاط الحرابي.

Article info

Received:
03/09/2021
Accepted:
21/10/2021

Key words:
- ✓ Bani Marin
- ✓ Arab tribes
- ✓ Military campaigns
- ✓ Road bandits

Abstract:

The Battle of Sétif (548AH) between the armies of the Almohads and the Arab tribes marked the Arab tribes' from the method of road bandts and the possession of space to repentance, stability and the orientation towards practicing some economic such as agriculture, for example. The Almohad state was able, through its policy , to control the Banu Hilal tribal groups , so it tried to integrate them by adopting a policy of involving them in jihad projects against the Christians and using them to pass the ruling project to Bani Abd al-Mumin .It also resettled some tribes, such as Rayah and Jisham, in the Maghreb AL-Aqsa, which led to the weakening and disintegration of these tribes, starting the rise of the state of Bani Marin and the complete collapse of the Almohads (668 AH) , the Marinids declared war on the Arab tribes, then what was directed by the two famous military campaigns, the compaign of Sultan Abi Al-Hassan in the 748 AH and his son after him, Sultan Abi Anan in the year 758 AH. Though Historiography portrayed these campaigns in the form of securing the pilgrimage route and disciplining tribes that contravene the authority, as the result was dire that ultimately led to the storming of all stability for the Arab tribes and their returning to banditry practices.

*المؤلف المرسل

مقدمة

قامت الدولة المرينية في القرن 08هـ/ 14م بإرسال حملتين عسكريتين كبيرتين لإفريقية والمغرب الأوسط كان لهما الأثر الكبير على القبائل العربية الهلالية، الحملة العسكرية للسلطان أبي الحسن علي المريني 731هـ-749هـ/1331م-1348م والحركـة التي قام بها ابنه السلطان أبي عنان فارس 749هـ-759هـ/ 1348م-1358م، حيث أدّت إلى نقض استقرار تلك القبائل التي ما فتئت تركن لممارسة بعض الأنشطة الاقتصادية وخاصّة منها الزراعية في ظل دولة الموحّدين، التي عرفت بفضل سياستها اتجاه العرب من استئلاف شيوخهم وتأطيرهم ضمن مشاريعها السياسية (مثل توريث الحكم لبني عبد المؤمن)، والنفعيّة بإدماجهم ضمن مشاريع الجهاد ضد النصارى بالأندلس وإعادة توطين الخارجين والرافضين لسياستها، مثل ما حدث لعرب رياح والجشم بإسكانهم بتامسنا والهبط من بلاد المغرب الأقصى.

قامت الإسطوغرافيا التاريخية المرافقة لتلك الحملات بتزيين صورة سلاطين بني مرين وأظهرت أنّ الدافع لها كان تأمين طريق الحاج وكذا القضاء على المخالفين للسلطة. نروم في هذه الورقة البحثية التطرّق للموضوع من خلال التركيز على سير هذه الحملات المرينية وانعكاساتها على القبائل العربية بعد استقرارها، ولهذا يمكن طرح السؤال التالي: **إلى أي مدى أثرت هذه الحملات المرينية على استقرار القبيلة الهلالية؟**

1. المغرب الإسلامي قبيل دخول الهلاليين[1]

1.1. حالة المغرب القبلية في القرنين 04-05هـ/ 10- 11م

قبل التطرّق للحملات العسكرية المرينية في القرن (08هـ/14م)، لابد من التعريج ولو باختصار على حالة المغرب قبل الاجتياح الهلالي، إذ أن دخول تلك القبائل منتصف القرن05هـ/11م كرّس لوضع قبلي جديد تمكّنت من خلاله تلك القبائل العربية من السيطرة على مجالات إفريقية والمغرب مع ممارستها لأسلوب الحرابة، ولم تعرف تلك القبائل الاستقرار إلّا في ظلّ دولة الموحّدين، التي استطاعت من خلال سياستها كبح جماح الهلاليين.

تميّز القرن 04هـ/ 10م بظهور صنهاجة على مسرح الأحداث بإفريقية والمغرب من خلال مظاهرتها للفاطميين[2] في دحر العدوّ الأوّل لها قبيلة زناتة وإجلائها نحو الغرب[3]، فارتفعت مكانة صنهاجة لدى الخلفاء الفاطميين، وجزاء على ذلك منح الفاطميّون أمراء صنهاجة بعض الولايات[4]، ولكن مع بداية القرن 05هـ/ 11م ظهر ما أطلق عليه ابن خلدون فساد عصبية صنهاجة[5] مع ما عرفه المغرب من دخول للقبائل العربية الهلالية التي مارست منذ الوهلة الأولى أسلوب التخريب وقطع السابلة، وبالتالي السيطرة على مجالات المغرب في ظرف وجيز[6] بعد خلوّ برقة من قبيلة زناتة وتصفية المعزّ الصنهاجي لأفرادها[7]، ولعل موقعة سطيف 548هـ/1153م[8] والتي انكسرت فيها شوكة الهلاليين كانت المنعرج الحاسم، إذ استطاعت دولة الموحّدين بعد هزيمة الهلاليين في هذه الموقعة السيطرة على الوضع وضمان ولاء القبائل الهلالية.

2.1. موقعة سطيف وبداية استقرار الهلاليين

عرفت فترة حكم الموحّدين استقراراً للعرب الهلالية، وذلك نتيجة للسياسة المتّبعة من قبل الدولة الموحّدية متمثّلة في حضور تأطير سياسي ونفعي للهلاليين ومحاولة إدماجهم، وذلك باستئلاف القبائل العربية من خلال موقف عبد المؤمن بن علي بعد موقعة سطيف 548هـ/ 1153م مباشرة، إثر مكاتبته لشيوخ العرب وتبليغهم بأن نساءهم وأطفالهم في الحفظ والصيانة وأنّه بذل لهم الأمان والكرامة، فردّ لهم ذلك وأحسن إليهم وأعطاهم أموالا جزيلة مسترقّا بذلك قلوبهم" **ليستعين بهم على ولاية ابنه محمد للعهد**"[9] (وهذه السياسة استطاع من خلالها الموحّدون وخاصة بنو عبد المؤمن من توريث الحكم بمساعدة العرب)، وكذا استعمال القبائل العربية وإشراكها في مشاريع الجهاد ضدّ النصارى بالأندلس [10] إذ يؤدّي أوّلاً إلى تفكيك عصبية القبائل العربية، وثانياً إلى استنزاف القوة العسكرية لها لصالح الدولة الموحّدية، ولعلّ محاولة روجر صاحب صقليّة الاتصال بالعرب وإمدادهم بثلاثة آلاف من الفرنجة ورفض العرب لذلك [11]، كان له علاقة باستمالة الموحدين للعرب وإشراكهم للجهاد بالأندلس، كما حاول الموحّدون إعادة توطين تلك القبائل وخاصّة القبائل الخارجة عن طاعة الموحّدين والمؤيدة للحركات المناوئة، مثل ما حدث لقبائل رياح والجشم بعد مساندتها لحركة بني غانية 580هـ/ 1184م ،فبعد قضاء الموحّدين على هذه الحركة قام الخليفة المنصور بإجلاء قبائل العرب من رياح والجشم وإعادة توطينها بالمغرب الأقصى، فأنزل الجشم ببلاد تامسنا ورياح ببلاد الهبط [12]، وهذه السياسة من شأنها إضعاف وتفكيك عصبية تلك القبائل.

2. الدولة المرينيّة وتقويض استقرار الهلاليين

يبدو أن المرينيين كانت لهم ضغائن للعرب منذ بداية تأسيس دولتهم، فصاحب الذخيرة السنيّة يتحدّث في نص له عن اشتداد بني مرين على العرب في عهد عبد الحق بن محيو ت614هـ/ 1217م، ففي المعركة التي قتل فيها هذا الأمير على يد عرب رياح يقول: "**فنُصرت بنو مرين وهُزمت رياح وقتل بنو مرين منهم خلقا عديدا، وفرّ من بقي منهم مهزوما خائفاً شريداً، واحتوت مرين على جميع ما كان في حُللهم من الأموال والخيل والعدد والثياب والإبل والدواب**"[13]، **كما كان ابنه أبا سعيد عثمان بن عبد الحق ت638هـ/1240 م أشدّ على العرب، يتبيّن ذلك من أول فعل له من ملاحقة العرب والأخذ بثأر أبيه " وأقسم ألاّ يكفّ عنهم حتى يقتل منهم بأبيه وأخيه مائة شيخ ... فقُتل منهم خلقا عديدا وأذاقهم وبالا شديدا**" [14] .

لقد كانت الدولة المرينية تسوم العرب العذاب، هذا الحال اشتد أكثر في القرن 08هـ/ 14م وخاصة في عهد الأميرين المرينيين أبي الحسن علي وابنه أبي عنان فارس، اللّذين اشتهرا بتوجيه حملات عسكرية كبيرة لإفريقية والمغرب الأوسط ظاهرها تأمين طريق الحج وتأديب بعض القبائل المُخالفة، وباطنها محاولة السيطرة على كامل المغرب والقضاء على العرب الهلالية.

1.2. الحملات العسكرية المرينية والاسطوغرافيا التاريخية المغربية

بعد الاستقرار الذي عرفته القبائل العربية الهلالية في ظل دولة الموحدين بدءا بأميرها عبد المؤمن بن علي، الذي استطاع استئلاف العرب وإدخالهم في مشاريع الجهاد ضد النصارى، ومن خلال ذلك توريث الحكم لبني عبد المؤمن بضمان ولاء الهلاليين، ومع قيام دولة بني مرين في القرن 07هـ/13م، انهار كلّ ما بناه الموحّدون، وبالتالي تم تقويض استقرار العرب الهلالية وخاصة مع تسيير المرينيين لأكبر حملتين عرفهما القرن 08هـ/ 14م، الحملة الأولى بقيادة الأمير المريني أبي الحسن علي (731هـ-749هـ/ 1331م-1348م) إلى إفريقية، والحملة العسكرية الثانية بقيادة الأمير المريني أبي عنان فارس بن علي (749هـ-759هـ/ 1348م-1358م).

لعبت الاسطوغرافيا التاريخية المغربية المُرافقة لتلك الحملات الدور الكبير في تزيين صورة تلك الحملات العسكرية وإظهارها في صورة النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وكذا تأمين طريق الحج، وقد أطال بعض المؤرخين والذين كان بعضهم شاهدا على تلك الحملات في سرد حوادثها بدءا بابن مرزوق التلمساني (ت781هـ) الذي أطنب في وصف الأمير أبي الحسن المريني من خلال كتابه : المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، ولعلّ ابن مرزوق كان ممّن أشار على الأمير بالسير إلى افريقية والاستحواذ على ملك الحفصيين وذلك في قوله: "**ولعلّهم يختلفون ويصير الأمر إليك**"، كما نجد صاحب الملعبة الكفيف الزرهوني قد خصص قصيدته كلّها في ذكر حملة أبي الحسن العسكرية، وبذل جهده في تلميع صورة سيّده وإعطاء تبريرات لخروجه، إذ يرى الزرهوني أن من دوافع السير نحو الشرق تأمين طريق الحج وكذا معاقبة القبائل العربية المفسدة والنهي عن المنكر وغيره، كما أنّه غالى في الجانب الآخر فاتّهم القبائل العربية الهلالية بالخروج عن الطاعة والإفساد، ووصفها بأبشع الصفات مثل قوله:

والعربي كالندى على الغرس يوما تقطع عنوا لعطا يخذل

أو كالعوسج ترى شجر خضرا غدا يلقاك بشوك كالظربان[15] ، فانظر إلى هذا الوصف الذميم للعرب عموما، كما وصفهم بأنّهم لا يعرفون الآذان ولا يصلّون، وأنّهم رعاة إبل لا أكثر في قوله:

وفي وقت الصبح ضجّت الغبرا بصياح الإبل لا من الآذان

أمّا حملة أبو عنان فالنميري ابن الحاج الذي كان مُرافقا للأمير قد وصف تلك الحملة من خلال كتابه فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، حتى أن هذا الأخير (النميري) رغم إعجابه بقصور العرب الهلالية في الزاب لم يستطع إخفاء إعجابه بهدمها إرضاء للأمير، حيث وصف قصر فلق بأنّه" [16] **كان عالي البناء ذاهبا كل مذهب في الإباء متناسق الأسوار مستوسع بمجاثم الجدار**" **ووصف هدمه بقوله: "وبقي ملاعب للضبع الضابحة والسراحين السارحة والرياح المتناوحة، ولم يبق من معانيه إلا رسوم كخطّ زبور في مصاحف، وباقي الوشم في ظواهر أيد عواطف** ..."[17] وكأنّه يتلذذ بهدمها.

أمّا ابن خلدون في كتابه العبر (الجزء 06 و07) فقد ذكر حملة الأمير المريني أبي الحسن وابنه وعن الباعث لخروج المرينيين في تلك الحملات، وأورد سببا غاية في الأهمية ألا وهو حديثه عن مذهب أبي الحسن في الفخر، إذ كان يزهو بنفسه ويرى أنّه من ملوك الأرض وأنّ باستطاعته السيطرة الكاملة على إفريقية والمغرب.

2.2. الحملات العسكرية المرينية في القرن08هـ/14م: قراءة في الدوافع والمآلات

1.2.2. الدافع وراء تسيير الحملات

مع تولّي أبي الحسن المريني لزمام الأمور وجّه نظره نحو إفريقية والمغرب الأوسط، وبالنظر إلى الجانب النفسي لهذا الأمير والذي وصفه ابن خلدون بقوله: " **له مذهب في الفخر معروف يتطاول به محاكاة للملوك الأعاظم واقتفاء سننهم**" [18]. يدلّ على ذلك هداياه لملوك الأرض كهديّته لملك مصر الناصر بن قلاوون والمتمثّلة في نسخة من كتاب الله بخطّه، مع ما كان معها من الأُبّهة والزخرفة [19]، كذلك اتّصاله ووفادة بعوثه إلى الملك المعظّم منسى سليمان [20]، فلعلّ السلطان أبي الحسن كان يسعى وراء هذه الحملات إلى إظهار قوّة وعظمة دولته من خلال السيطرة على بلاد المغرب الأوسط والقضاء على بني عبد الوادي، وإحكام قبضته على إفريقية التي كانت بحوزة الحفصيّين، وبالتالي اتصال دولته.

وبالرجوع إلى دوافع الحملات العسكرية نجدها متعددة، تلعب الإسطوغرافيا التاريخية المغربية دورا في تزيين صورة هذه الحملات مثل: صاحب الملعبة الكفيف الزرهوني وكذا ابن مرزوق في المسند الصحيح الحسن، وكذا ابن الحاج النميري في فيض العباب بالنّسبة لحملة السلطان أبي عنان، يمكن تلخيص أهم الدوافع وراء تلك الحملات في تأمين طريق الحج إذ يورد ابن مرزوق نصًّا في مسنده الصحيح، وذلك عند بلوغ أبي الحسن وفاة صهره أبي يحيى الحفصي، إذ يقول: "... **ولعلّهم يختلفون ويصير الأمر إليكم**"[21]، ثمّ يعود ليدلّل على كلامه بأنّ هذا الأمر (وهو ضمّ إفريقية للسلطان المريني) يحبّه من وجه ويكرهه من وجه، فالأول لاتّصال طريق الحج واتّحاد البلاد، أمّا الذي يكرهه من مسيره إلى إفريقية فلما فيها من الشغب والبعد عن الوطن وتحمّل المشاقّ[22]، فتأمين طريق الحج يمثّل الأولويّة، وهذا ما نقله صاحب الملعبة في قصيدته من قوله:

وأعظم من ذا وأجلّ تفتح طريق الحج للحجّاج [23]

وقوله:

وطريق الحجّ عطلوا المجرا تحلب فيها مصارن الركبان[24] .

ولعلّ الدافع الثاني يكمن في القضاء على المفسدين من العرب، فلقد كان من أهداف الحملات المرينية القضاء على قطّاع الطرق والمفسدين وخاصة من العرب الهلاليّة، أورد ابن مرزوق نصًّا يدل على الخوف من شغب العرب، فكان السلطان المريني يضع في حسبانه عند إرسال البعوث إلى الملوك وكذا القوافل التي تسير

نحو الحج تخصيص أموال معيّنة لدرء فسادهم وضمان عدم تعرّضهم لتلك القوافل من قبل الهلاليين: "... **ويرسم العطاء للعرب في الطرقات ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومن الكسى مائتان...** " [25]، وقال صاحب الملعبة:

وتنقّيها من البيسا حتى تمشي فيها المرا بالتّاج [26]

وكذلك كانت حملة السلطان أبي عنان سنة 758هـ/ 1357م، فنجد النميري في فيض العباب يذكر من بين الأسباب تأديب العرب المخالفين[27]، كما أنّ ترغيب الوزراء للسلطان في المسير كان له الأثر في سير الحملة العسكرية لأبي الحسن، فكما أسلفنا بأن ابن مرزوق قد رغّب السلطان في المسير نحو إفريقية "**ولعلّهم يختلفون ويصير الأمر إليكم**"[28]، نجد حاجب الحفصيين محمد بن تافراكين يرغّب السلطان في العجلة بالسير إلى إفريقية[29]، وخاصّة بعد مقتل ولي العهد الحفصي أحمد ووثوب أخيه عمر على كرسي الحكم بإفريقية، ولعلّ دعوة العرب لأبي الحسن بالسير إليهم كان دافعا مهمّاً، وهذا بعد ما رأوا من عمر بن أبي يحيى المتسلّط على العرب الكعوب، قال ابن خلدون: "**سامهم الأمير عمر بن أبي يحيى الحفصي الهضيمة بعد مهلك أبيه ... فتداعوا إلى السلطان أبي الحسن ورغّبوه في ملك إفريقية واستغذّوه إليها**" [30]، كما أن هناك دافعٌ شخصي يتعلق بالأمير المريني أبو الحسن يتمثّل في عدم قبول الحفصيين مصاهرة الأمير المريني، وهذا ما أورده ابن خلدون في العبر من أنّ توجيه السلطان حملته إلى إفريقية كان سببه عدم موافقة الحفصيين لمصاهرته: "**ردّوا خطبته، نهض من المنصورة وأغذّ السير إلى فاس ففتح ديوان العطاء وأزاح علل عساكره ... وارتحل إلى تلمسان مضمراً الحركة إلى إفريقية حتى جاءه الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف**" [31]، وهناك دافعٌ إصلاحي صوّرته الاسطوغرافيا المُرافقة للأمير ألا وهو تغيير المنكر بإفريقية والمغرب الأوسط، ويظهر ذلك في مناجاة السلطان أبو الحسن المريني ربّه، ففي قصيدة الكفيف الزرهوني يبيّن أن السبب في سيره تغيير المناكر مثل شرب الخمر، يقول:

صبت ظلما وبحر من خمرا من حد افريقية لمزغنان [32] .

2.2.2. نتائج حملات بني مرين

يمكن تلخيص أهمّ نتائج هذه الحملات على القبائل العربية في نقطتين هامّتين هما: انتقاض العرب الهلالية وبالتالي العصف بكل استقرار كانت عليه والرجوع بها إلى أسلوب الحرابة وقطع السابلة، والثانية تدمير وتهديم قصور ورباطات العرب ببلاد الزاب والتي كانت غايةً في الإتقان والرّوعة.

1.2.2.2. عودة العرب لأسلوب الحرابة

من بين البواعث لحملة أبي الحسن المريني دعوة العرب له للمسير نحوهم بعد ما رأوا إجحافاً من عمر بن أبي يحيى، ولكن مع مسيره رأى منهم اعتزازا على الدولة وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي والأمصار، فنكر عليهم ذلك، فأبدلهم بالأمصار التي اقتطعوها بأعطيات فرضت لهم في الديوان، كما أنقص الكثير من جباياتهم

التي رآها كثيرة، وقبض أيديهم على الخفارة ،وذلك بعد تقديم الرعيّة شكوى بهم[33]، أحسّ العرب بأن السلطان قد مسّهم في امتيازاتهم [34]، فكانت النتيجة انتقاضهم والعودة إلى حالة الحرابة من الإغارة وقطع السابلة، فاجتمعوا على حرب السلطان وتمّت محاصرته بالقيروان، وقد كانت للعرب كثرة وصفها الكفيف الزرهوني بقوله:

في عرب يصبح وفي عرب يمسي منهم يرحل وبينهم ينزل [35].

كما أخذ السلطان من العرب الزكاة على حدّ تعبير صاحب الملعبة، والتي رأوا أنّها ضريبة وغرامة، يقول الكفيف الزرهوني:

فتلاطت العرب وزاد أمرا حتى قال عجب لذا الإنسان

ما راد يخلف دنانير الصفرا غير منّا في الزكا وفي أمر هان

نحن هنا من زمان عمر وعلي وكثرنا من سلالة الصحبا

ودركنا عبد المومن بن علي وملكها من سلالأرض سبا

ما فخر قط بنـــوق ولا بزلي من دباب والكعوب مع زغبا [36].

وفي الأبيات الماضية مدحٌ صريحٌ لعبد المؤمن بن علي أمير الموحدين، وهو ما يزيدنا يقينًا بأن العرب كان لهم الاستقرار في ظل دولة الموحّدين.

ويبدو أن نفس الأمر حصل مع السلطان أبي عنان، لمّا نظر السلطان في أوضاع البلاد قبض على أيدي العرب من رياح عن الإتاوة كما طالبهم بالرهن، فرفضوا ذلك ولحقوا ببلاد الزاب وارتحل في ملاحقتهم[37]، وكان من تخريبه للقصور والحدائق والحصون، إذ يذكر النميري أنّ أبا عنان لمّا بلغ بلاد السدويكش أقام البريح بأن "**مطالب العرب قد ارتفعت عن الأوطان وضرائبهم قد أزيلت وأحوال خفاراتهم قد أحيلت**" [38]، والملاحظ أنّ السلطان أبا عنان قد استعمل سياسة الرهن مع العرب، وذلك بأخذ أحد الأولاد أو الإخوة كرهينة ووضعه في السجن ضمانا لدفع أذى العرب ،ورأى السلطان أن هذه السياسة هي الكفيلة بوضع حدّ لتصرّفات العرب وكبح جماحهم[39]، هذه السياسة(أخذ الرهن) لم يتقبّلها شيوخ العرب ورفضوها، وعادوا إلى ممارسة الإغارة وأسلوب الحرابة ،"**ولم يكن بأسرع من إخافتهم للسبل وقطعهم للطرق الزّلل وشنّوا الغارة على الضعفاء واختلسوا ما وجدوه في الخلاء** "[40].

2.2.2.2. تخريب قصور ورباطات العرب

وصف ابن الحاج النميري قصور العرب بالزاب والصحراء بوصف رائع ينمّ على أنّ هؤلاء العرب قد عاشوا حياة الاستقرار، ورغم أن النميري كان ممن رافق السلطان في حركته للزاب فإنّه لم يخف إعجابه بفن العمارة لتلك القصور، فوصف قصور عثمان بن علي الرّياحي بأنّه: "**قصر بديع قد قامت بذلك الموضع**

الخلاء عجائب آثاره"[41]. "**وكان قصرا منفسح المساحة منخرق المساحة قد ارتفعت حيطانه من جهاته الأربع بالحجر المنجور المعروف بالعيسوي ... لا ترميه المجانيق إلاّ كاد يعدو عليها شرره ويضحك من تفتت حجارتها تأثيره وأثره"**[42]، كما تدلّ هذه القصور على ممارسة العرب للزراعة من خلال الحدائق التي وصفها النميري في قوله: "**وحفّت بهذا القصر جنّات تُعرف في وجوهها نضرة النعيم، وحدائق تسهل ألفات أغصانها ألسنة النسيم، وتنسي حمائم شجراتها الزائقة غنّاء رائقة ... وخضرة تسبي بالأنفاس العطرية** "[43] .

ومثلها قصور يعقوب بن علي، وقصر باينة وهو قصر بناه سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي، والقصور التي شُيّدت على أنقاض المدينة الرومانية لميس، خُرّبت جميع تلك القصور وأصبحت أثراً بعد عين، ممّا أدّى بالعرب إلى اللحاق بالقفر من الصحراء وممارسة أعمال التخريب وقطع الطريق، بعد أن كانت تلك القصور رباطات يقصدها العرب لممارسة التصوّف[44] .

يحاول النميري بعد إعجابه بعمران تلك القصور والحصون والرباطات إعطاء تبرير للسلطة المرينية في هدمها لتلك القصور وتدميرها، فتارةً يجعل من قصر عثمان بن علي الرياحي مقرّاً يرتاده أهل العناد والفساد ونصرة لأخيه يعقوب بن علي مُظاهرين بذلك العداوة لبني مرين[45]، وتارةً يتّهم عثمان الرياحي بأنّه لا يُقري الضيف ولا يقوم بحقوق الإخوان رغم ما يملكه من الأموال[46]، كما جعل من قصر باينة موضعا للادّخار ورباطاً.

وهذا ما يبعث فينا التساؤل حول مدى صدقيّة مؤرخ السلطان؟

خاتمة

وكخلاصة لما سبق يمكن القول بأن قبائل العرب ابتداءً من منتصف القرن 05هـ/11م مارست نشاطاً حرابيّاً واسع النطاق تمخّض عنه السيطرة على الضواحي والمدن وحيازة مجال إفريقية والمغرب الأوسط، ولكن مع ظهور الموحّدين وسيطرتهم على أجزاء كبيرة من المغرب ضعفت عصبيّة الكثير من القبائل العربية وتفككّت، وخاصّةً مع انكسارهم بموقعة سطيف 548 هـ/ 1153م، وما تبع ذلك من إعادة إسكان العرب بالمغرب الأقصى، والاشتراك في عمليات الجهاد ودحر الحركات المناوئة للموحدين.

ومع قيام دولة المرينيين بالمغرب الأقصى تمّ القضاء نهائياً على استقرار العرب من خلال إرسال أهم حملتين عسكريتين لأمراء وسلاطين الدولة المرينية إلى إفريقية والمغرب الأوسط، كانت نتيجتها توجّه العرب نحو الصحاري والقفار بعد تخريب أماكن استقرارها من القصور والأربطة والحصون وغيرها، كما عادت هذه القبائل إلى ممارسة نشاطها الأول المتمثّل في أسلوب قطع الطريق والإغارة على القوافل وبالتالي عودتها إلى وضع النشاط الحرابي.

وعليه فإنّ الظاهرة الهلالية هي طرف في ظاهرة سياسية وعسكرية واقتصاديّة شاملة تابعةٌ لسياسة الدويلات المغربيّة القائمة في العصر الوسيط.

الهوامش:

1 غلب اسم القبائل الهلالية على القبائل العربية الداخلة إلى المغرب الإسلامي رغم أن غالبيتهم كانت من بني سليم، قال حسين مؤنس:" ومع أنّ العرب الذين دخلوا مصر واستقرّوا فيها كانت غالبيتهم من بني سليم فإنّ اسم بني هلال غلب عليهم جميعاً، لأنهم كانوا أوغل في البداوة وأعنف من بني سليم في معاملة الناس وإنزال الضرر بهم، فأصبح الكلّ ينسبون إلى هلال بن عامر بن صعصعة وسمّوا هلاليين أو هلاليّة"، حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط 5، 2000، ص 168.

2 عبد الرحمان بن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط)، 1968، المجلد 06، ص313.

3 المصدر نفسه، المجلد07، ص 59.

4 المصدر نفسه، المجلد06، ص313.

5 عبد الرحمان بن خلدون: **المقدمة**، تحقيق حجر عامي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1991، ص108.

6 الطاهر بونابي: **مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2017، ص 124.

7 عبد الفتاح رجب حمد بيوض: **تاريخ برقة الإسلامي في الفترة من القرن05هـ حتى الربع الأول من القرن 10هـ(400هـ-925هـ)**، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، الجماهيرية الليبيّة، ط1، 2009، ص 62.

8 أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، (د.ط)، 1971، ص74.

9 عز الدين بن الأثير: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1 ،1987، جزء 09، ص 391.

10 بن عريب مصطفى، **مجتمع المغرب الأوسط المتغيّرات والعلائق من القرن04 هـ إلى سقوط الموحّدين 668هـ(10هـ/13م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2016-2017، ص 152.

11 ابن الأثير، المصدر السابق، جزء09، ص 390.

12 عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، مجلد06، ص ص 45-46.

13 ابن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة، الرباط، (د.ط)، 1972، ص ص 33-34.

14 المصدر نفسه، ص 35.

15 الكفيف الزرهوني، **الملعبة**، تحقيق محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص 78.

16 ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 428.

17 المصدر نفسه، ص 429.

18 ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد07، ص 554.

19 المصدر نفسه، مجلد07، ص 552.

20 المصدر نفسه، المجلد07، ص555.

21 محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص355.

22 المصدر نفسه، ص 355.

23 الكفيف الزرهوني، المرجع السابق، ص70.
24 المرجع نفسه، ص 108.
25 ابن مرزوق التلمساني، المصدر السابق، ص 454
26 الكفيف الزرهوني، المرجع السابق، ص 70.
27 ابن الحاج النميري، السابق السابق، ص 160.
28 ابن مرزوق التلمساني، المصدر السابق، ص 355.
29 ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد07، ص557.
30 المصدر نفسه، المجلد 07، ص569.
31 المصدر نفسه، مجلد 07، ص557، وأنظر ص 556.
32 الكفيف الزرهوني، المرجع السابق، ص 108.
33 ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد07، ص 569-570.
34 محمد بن مرزوق التلمساني، **المناقب المرزوقية**، تحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2008، ص39.
35 الكفيف الزرهوني، المرجع السابق، ص 77.
36 المرجع نفسه، ص 90.
37 ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد 07، ص619.
38 ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص282.
39 المصدر نفسه، ص 386-387
40 المصدر نفسه، ص 388.
41 المصدر نفسه، ص413.
42 المصدر نفسه، ص413.
43 المصدر نفسه، ص 414.
44 الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 131.
45 ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 415.
46 المصدر نفسه، ص 415.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- ابن الأثير، عز الدين، (1987)، **الكامل في التاريخ**، لبنان، دار الكتب العلمية.
- البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، (1971)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين**، الرباط، دار المنصورة للطباعة والوراقة.
- ابن خلدون، عبد الرحمان، (1968)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، لبنان، دار الكتاب اللبناني.
- ابن خلدون، عبد الرحمان، (1991)، **المقدمة**، بيروت، دار ومكتبة الهلال.
- الزرهوني، الكفيف، (1987)، **الملعبة**، الرباط، المطبعة الملكية.

- الفاسي، ابن أبي زرع، (1972)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، دار المنصور للطباعة.
- ابن مرزوق، محمد التلمساني، (1981)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- ابن مرزوق، محمد التلمساني، (2008)، **المناقب المرزوقية**، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- النميري، ابن الحاج، (1990)، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

المراجع

- بونابي، الطاهر، (2017)، **مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، الجزائر، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- بيوض، عبد الفتاح رجب حمد، (2009)، **تاريخ برقة الإسلامي في الفترة من القرن05هـ حتى الربع الأول من القرن 10هـ (400هـ-925هـ)**، الجماهيرية الليبيّة، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية.
- مؤنس، حسين، (2000)، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار الرشاد.

الأطروحات

- بن عريب، مصطفى، (2017)، **مجتمع المغرب الأوسط المتغيّرات والعلائق من القرن04 هـ إلى سقوط الموحّدين 668هـ(10هـ/13م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر.